

الرمز الشعري: الدلالات والأبعاد في شعر مفدي زكريا

طارق بومود. جامعة 20 أوت 1955. سكيكدة.

Le résumé:

L'article tente de démontrer l'efficacité du symbole poétique dans la représentation des valeurs humaines et la manière de l'employer dans le discours poétique chez **Moufdi Zakaria**. Et ce dans le but de détecter les composants esthétiques et stylistiques, et les connotations multiples transmises. En essayant, dans le contexte lui-même, de faire la différence entre le symbole et le symbolisme, le symbole et la référence, et le symbole et l'image; en se penchant sur les éléments de performance symbolique et notamment la suggestion de la personnification de la nature et en rappelant aussi les symboles religieux et historiques et l'emploi de ses connotations pour exprimer les valeurs et les sentiments humains originels. Aussi, qu'il soit en mesure de dépasser la sphère nationale pour arriver à la sphère mondiale. En touchant du doigt les sources du symbole, tant inspirées par le patrimoine arabe, ses différents genres et le contraste de ses références, qu'inspirées par les éléments de la nature. Le symbole poétique dans les poèmes de **Moufdi Zakaria** cache plusieurs significations ainsi il décrit des exemples humains comme le sacrifice, la résistance, la justice, la libération et bien d'autres, et ce par le biais de l'institution de nouvelles relations entre les fonctions et les implications.

المخلص:

يحاول المقال تبين فاعلية الرمز الشعري في تمثيل القيم الإنسانية وكيفية توظيفه في الخطاب الشعري لدى مفدي زكريا، ابتغاء كشف المكونات الجمالية والأسلوبية، وما يحيل من دلالات متعددة، محاولا في السياق ذاته التفريق بين الرمز والرمزية، والرمز والإشارة، والرمز والصورة، من خلال الوقوف على عناصر الأداء الرمزي، ولاسيما الإيحاء بشخص الطبيعة، وكذا استدعاء الرموز الدينية والتاريخية وتوظيف دلالاتها للتعبير عن القيم والمشاعر الإنسانية الأصيلة؛ كونها قادرة على تجاوز الحيز الوطني والقومي وصولا إلى الحيز العالمي. مُتَكَلِّمًا مصادر الرمز سواء مستوحاة من التراث العربي على اختلاف أنواعه وتباين مرجعياته أم مستوحاة من عناصر الطبيعة. فالرمز الشعري في قصائد مفدي زكريا يخفي معان متعددة، كما أنه يُفصِّح عن مثلي إنسانية، كالتضحية والمقاومة والعدل والتحرر وغيرها، وهذا خلال إقامة علاقات جديدة بين الدوال والمدلولات.

لاشكَّ أنَّ الرَّمزَ الشعريَّ في شعر مفدي زكريا لغةٌ إيحائيةٌ مُفعمةٌ بالدلالة الإنسانية، فهو يَجْمَعُ بين إحساسٍ مُرهفٍ، وتَصوِيرٍ فني مُبدعٍ، وتأثير جماليٍّ أخاذٍ، وتَلَقُّى هذه العناصرُ جميعًا لِشَكْلِ نسيجها لغويًّا ودلاليًّا يَرْتَبِطُ بماضيه وحاضره ومستقبله مُتَخَطِّيًا في ذلك حدودَ الزمانِ والمكانِ. ولذا يحاولُ شاعرنا استثمارَ طاقةِ الرمزِ الدلاليةِ من خلال استحضار الرموزِ الطبيعية والشخصياتِ التاريخيةِ في مواقف تتصل بالأبعادِ الحضاريةِ والقيمِ الإنسانيةِ. وما يُصاحِبها من تجاربٍ شعوريةٍ، فيَصْغُ القارئُ بين عالمين: قدسٌ له قدسيته، وحديثٌ له ضرورته، وهذا ما جعلنا نُسلِطُ الضوء على أشكال الرَّمزِ الشعري وقدرته الفنية على تمثُّلِ القيمِ الإنسانيةِ لدى الشاعر، مما نُضيء على إشكالية القراءة لدى المتلقي، ومدى تواصله بالنص الرمزي وإحالاته الدلالية؛ لأنَّ الرَّمزَ يُوظف في القصيدة مُحملاً بمضامين جديدة يَكْشِفُ عنها بالوصول إلى معرفة أبعاده التعبيرية داخل الحقل الأدبي المعني.

والقصيدة الثورية بشكل خاص تَسْتَنِدُ إلى فاعلية الرموز في التعبير عن المقاومة والجهاد والحرية كما أنها تَسْتَجِبُ لانشغالات القارئ الإنسانية، فلا بدَّ من إعادة وجودها لنكشف عوالمها الدلالية، متوسلين في ذلك بآليات المنهج السيميائي، ما يُمْكِنُنَا للوصول إلى فهم عميق لحركية الرَّمز الشعري لدى مفدي زكريا. وهذا بالتركيز على الإيحاءات الرَّمزية التي تفصح عن المثل النبيلة، التي تعكس روح الثورة الجزائرية في خطابه الشعري النادر.

وتعد قصائد مفدي زكريا الثورية ذو إمكانات رمزية متعددة وتبرز ذلك جليا في دواوينه ولاسيما **اللهب المقدس وإلياذة الجزائر** الذي جمع فيهما شعره الثوري ابتداء من سنة 1953م إلى سنة 1961م مُقْصِحاً عن واقع ثورة وتاريخ حرب ومقاومة، وعصارة قلب يتوجع ألماها ويستشرف آمالها، كما عاش أحدث بلاده في السجون والمعتقلات. شهد هو "ديوان الثورة الجزائرية بواقعها الصريح وبطولاتها الأسطورية، وأحداثها الصارخة، وهو شاشة تليفزيون تبرز شعب استجاب له القدر"¹ ويعترف الشاعر في استهلال ديوانه **اللهب المقدس** بأنه لم يعن فيه "الفن والصناعة عنايته بالتعبئة الثورية، وتصوير وجه الجزائر الحقيقي بريشة من عروق قلبي"² ذلك أن الشعر في نظره "إلهام لا فن، وعفوية لا صناعة"³. إن دواوين بهذه الخصائص الواقعية، وبهذا الاعتراف الذي استهله به صاحبه لجديرة بدراسة سيميائية؛ تقف على حقول دلالية التي حققتها رموزه الشعرية المتعددة، وما تحمل من أبعاد إنسانية سامية، ومن لمسات فنية مؤثرة، وأعتقد أن ذلك مدخل ناجح لقراءة مضموناتها، وتحديد آفاقها الرحبة.

1- **دلالة الرمز وأنوعه:** إنَّ المتتبع لتطور دلالة الرمز في المعاجم العربية ومختلف الميادين النقدية والفنية يتمس تعددا في دلالاتها التي تتصف بالتغير والتبدل تبعا للسياقات التاريخية والثقافية التداولية التي ترد فيها. وهذا

بحسب الأغراض الجمالية والفنية، كونه إحدى الأدوات التعبيرية الأكثر شيوعاً في التداول والاستعمال منذ القدم إلى يومنا هذا. متخذاً معاني شتى تختلف من مجال معرفي لآخر.

1.1- دلالة الرمز في التراث العربي: يُطلق الرمز عند العرب القدامى على معان عدة؛ كالإشارة

والإيماء والصوت الخفي؛ حيث ورد في القاموس المحيط لفيروز آبادي: "الرمز هو الإشارة بالشفيتين أو العينين أو الحاجبين أو اليد والفم واللسان"⁴، ويرى بعضهم أن أصل الرمز هو الصوت الخفي الذي لا يفهم، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ آيَتُكَ إِلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمَزًا﴾ [آل عمران 14]

وعليه، فإنَّ دلالة الرمز في المعجم العربي القديم يشير إلى الإشارة وهي إحدى طرق الدلالة، فقد تصاحب الكلام، فتساعده على البيان والإفصاح؛ لأنَّ حسن الإشارة باليد أو الرأس من تمام حسن البيان، كما يقول الجاحظ، أو تنوب عن الكلام، فتستقل هي بالدلالة.

وتحدر الإشارة إلى أن مصطلح الرمز بمعناه الاصطلاحي لم يعرف إلا مع العصر العباسي؛ حيث ذكره درويش الجندي ذلك قائلاً: "فقد اقترن عند قدامة بن جعفر بالإيجاز فيما هو أسلوب يخاطب به الذين يكتفون من الكلام بالتلميح والإشارة، يبتعدون عن الشرح والإطناب. وأضاف إليه ابن رشيق القيرواني غير المباشرة في الدلالة، فيقول: أنَّ معناه بعيد من ظاهر لفظه"⁵ أو هو "الذي قلَّت وسائله مع خفاء في اللزوم بل تعريض، نحو فلان عريض القفا، أو عريض الوسادة، فهي كناية عن بلاذته وبلاذته"⁶. والرمز في لغة العرب: هو الإشارة، كما يقول الجاحظ: "وفي كلام العرب ما يدلُّ على أنَّ الإشارة أو الرمز طريق من طرق الدلالة، تصحب الكلام فتساعده على البيان والإفصاح؛ لأنَّ حسن الإشارة باليد أو الرأس من تمام حسن البيان"⁷. وعليه، فإنَّ الرمز في التراث العربي يرتبط بلغة التلميح والإشارة البعيدة عن الإطناب والشرح المفصل، بل هو تقليل في العبارة وتكثيف في الدلالة، فهو بمثابة مثير يستدعي لنفسه الاستجابة نفسها التي تستدعيها آخر عند حضوره.

2.1- دلالة الرمز عند المحدثين: تعود أصل كلمة رمز (Symbol) في اللّغة اليونانية القديمة

إلى (Sumbolein) التي تعني الحزر والتقدير. وهي مؤلفة من (Sum) بمعنى مع و(Bolein) بمعنى حزر، فهذه الكلمة (Symbol) مع كلمة (creed) التي تعني دستور الإيمان، كما يستعمل منذ القدم في الشعائر الدينية والفنون الجميلة عامة، والشعر خاصة ولاسيما الدلالة اللغوية. أمَّا أرسطو فحدّد دلالة الرمز بقوله: "الكلمات المنطوقة رمز لحالات النفس والكلمات المكتوبة رمز للكلمات المنطوقة"⁸ وأمّا العصر الحديث، فيعرّفه أدونيس بقوله: "اللغة التي تبدأ حين تنتهي لغة القصيدة أو هي العقيدة التي تكون

في وعي القارئ بعد قراءة القصيدة. إنه البرق الذي يتيح للوعي أن يستشف علما لا حدود له"⁹ وأشير في السياق ذاته أن بعض الدّرسين ربط بين العمل الأدبي في علاقته مع الرّمز، وهذا نلمحه في تعرف **موهوب مصطفى** للرمز بقوله: " إنه تعبير غير مباشر عن فكرة بواسطة استعارة أو حكاية بينها الفكرة المناسبة، وبهذا يُمكن الرّمز في التشبيهات والاستعارات والقصص الأسطوري والملحمي والغنائي وفي المأساة والقصة وفي أبطالها"¹⁰ وهناك من يفرق بين الصورة التقليدية المعروفة والرمز، لذا نجد الناقد **الوالي محمد** يوضح ذلك قائلا: "الرمز لا يمثل أداة تعبيرية مثل الاستعارة والمجاز المرسل والكناية، إن هذه المجموعة الأخيرة هي التي تنضوي تحت تسمية الرمز، وأن الرمز يدل على جنس وأنواعه هي: الاستعارة والمجاز والكناية"¹¹ ولذا ارتبط الأدب الثوري بالرمز كونه قادرا على الارتحال ضمن سياقات جديدة يستدعيها الشاعر فيلبسها حلّة جميلة تؤثر في سامعيه، ويلبس خيالهم وعواطفهم بما يحققه من متعة فنية له، وبملاسة للمعنى بطريقة شعرية غالبا.

3.1 - أنواع الرّموز: من الأدوات الفنية التي يعتمد عليها كثير من الشعراء ولاسيما شعراء الثوريين والرومانسيين للتعبير عن تجربتهم الشعرية القابعة في وجدانهم، والتي تتمثل في الرموز؛ كونها وسائل فنية تقوم مقام شيء آخر وتمتلك طاقة تعبيرية مفعمة بالدلالة كما أنها تختزل المعاني التاريخية والثقافية ما تمنح القارئ الفرصة في إعادة تشكيلها وبناء دلائلها من جديد، وهي كثيرة أذكر منها: الرموز الطبيعية، والدينية، والتاريخية، والأسطورية ومن أمثلة على ذلك ما يلي:

- **الرموز الطبيعية:** كالمطر: رمز الخير، العطاء، أو الغضب (حسب الموضوع والمدلولات الشعرية الخاصة بالشاعر) البحر، الثلج، النجوم، الحشيش، الليل، النهار، السماء، الشمس، الحمام، الجبال، وغيرها من الرموز الطبيعية.

- **الرموز الدينية:** الأنبياء والرسل، والصحابة والتابعين والعلماء، المعارك والغزوات (بدر، أحد اليرموك حطين، عين جالوت...) المسجد، الكنيسة، غار حراء، غار ثور، الطور، الهيكل، القرآن الكريم الإنجيل، التوراة.

- **الأماكن ذات المدلول الشعوري:** مكة المكرمة، الأوراس، البصرة، بغداد، القدس، سطيف، قلعة خراطة الصومام...إلخ.

- **الرموز الأسطورية:** الأساطير حكايات وقصص غارقة في الخيال والتصورات الخرافية، بعيدة عن المنطق الحضاري الحديث، وبها يجسد الشاعر عالما خفيا مفعما بالدلالات النفسية والفكرية والإنسانية...بما تتضمنه من

عطاء فني وتاريخي للوصول إلى تخلص اللغة الشعرية من غنائيتها الفجة بواسطة استحداث معادل موضوعي بين الذاتية والموضوعية والانطلاق بالتجربة الفردية إلى مستوى التجربة الإنسانية الكلية.

وعليه، فإن الرمز الأسطوري نتاج معرفي جمعي له امتداد في الماضي والحاضر والمستقبل، وبه يحضر الماضي في وعاء الحاضر ليمتد ويتكرر في المستقبل.

2- مصادر الرمز الشعري عند مفدي زكريا: إنّ أول ما يلفت القارئ في شعر مفدي كثرة وتنوع الرموز الشعرية التي وظفها لأغراض إنسانية وجمالية، فهي تفصح عن تنوع مصادره التي استعان بها في تمثيل تجاربه الشعرية، فكانت بمثابة ذخيرة ثقافية وتاريخية ودينية تدلّ على انتمائه العربي والإسلامي الممتد في أعماق تاريخ هذه الأمة العريقة، كما تشير إلى بيئة الشاعر وطبيعة تكوينية الديني والوطني والتي لها الأثر البالغ في تشكيل مادة الرموز الشعرية ودلالاتها المتعددة تبعا لتعدد وتنوع مصادرها فمنحها أبعادا جديدة تستجيب لرؤية الشاعر وتجربته الشعرية الثائرة، فهي تفرض نفسها كبديل عن اللغة المباشرة في لحظة تاريخية تمر بها الثورة الجزائرية فيكسبها معان متعددة يفرضها السياق الجديد.

1.2- المكون الديني: لاشك القرآن الكريم أسهم في إمداد النصوص الشعرية لمفدي زكريا برموز شعرية متعددة مستلهما من روحه وآياته مختلف الصور الشعرية، ومستخرجا منه ألوان التعابير الشعرية المؤثرة، فهناك العديد من النماذج الشعرية التي استوحى من دلالات آيات القرآن الكريم وقصصه الرؤية والتشكيل، ويظهر جليا في وصفه ليلة أول نوفمبر 1954م بليلة القدر المباركة باعتبارها وثبة في تاريخ الجزائر نحو الحرية ورفض الاستبداد، مشبها إياها بليلة القدر هذه الليلة العظيمة التي تحررت البشرية قاطبة من الجاهلية وعبادة الأوثان إلى نور الإسلام وهذا بنزول القرآن الكريم، فكان الحد الفاصل بين النور والظلام فيقول:

دعا التاريخ ليلك فستجابا (نوفمبر) هل وفيت لنا النصابا؟

وهل سمع الجيب نداء شعب فكانت ليلة القدر الجوابا؟

فأبدع مفدي في توظيف هذه الرموز الشعرية مقتبسا إياها من القرآن الكريم ومنحها أبعادا دلالية وإيحاءات رمزية جديدة تعبر عن الانتماء والاعتزاز. كما استخدم مفدي في إلباذته بعض الصيغ الجاهزة أحيانا بألفاظها وأخرى بنحت معانيها ووضعها في كلمات من عنده، فكانت مصدرها القرآن الكريم. والأمثلة على ذلك كثيرة أذكر منها:

وأوقفت ركب الزمان طويلا أسأله عن ثمود وعاد

وعن قصة الجدد من عهد نوح وهل إرم هي ذات العماد؟

فأقسم هذا الزمان يمينا وقال الجزائر دون عناد

ويتضح لنا من هذه الأبيات أن شاعرنا قد اقتبسها من قوله تعالى: (ألم ترك كيف فعل ربك بعدا) وقوله: (إرم ذات العماد). وقوله تعالى: (التي لم يخلق مثلها في البلاد) وقوله وثمرود الذين جابوا الصخر بالواد) إلى غير ذلك من الاقتباسات القرآنية اللفظية والمعنوية المبثوثة في ثنايا الإلياذة، مما يوضح لنا الثقافة الإسلامية التي يحظى بها شاعر الثورة الجزائرية.

2.2- المكون الأدبي القديم: يُمثّل الشعر العربي الرافد الثاني الذي استقى منه الشاعر رموزه الشعرية بعد القرآن الكريم؛ إذ تأثر كثيرا به، وذا ما يظهر في قصيدته وتعطلت لغة الكلام، يقول:

السيفُ أصدقُ لهجة من أحرف كتبت، فكان يباها الإهائم

والتأّر أصدق حجة، فأكتب بما ما شئت تصعق عندها الأحلام

إن الصفائف، للصفائف أمرها والحبر حرب، والكلام كلام

والمتمعن لسياق النص الشعري، يلاحظ أن مفدي زكريا قد تناثرت أبيات قصيدة أبي تمام بين أبيات قصيدته؛ فالشاعر قد أتى بما قصده أبو تمام في افتتاحية قصيدته المشهورة فتح عمورية، فيقول:

السيفُ أصدقُ إنباءً من الكتب في حده الحدّ بين الجدّ واللّعب

بيض الصفائف لا سود الصفائف في متوحن جلاء الشك والريب

كما استعان مفدي بالجناس اللفظي (الصفائف - الصفائف) فإذا كانت الصفائف في نص أبي تمام تحيل إلى المنجمين إن الصحيفة والحبر والكلام في نص مفدي تحيل إلى اتفاقيات فرنسا وعهودها مع الجزائريين؛ وإذا كان السيف الذي حمل لفتح عمورية قد حطّم تنبؤات المنجمين وتكهّناتهم، فإنه السيف ذاته الذي ينبغي أن يرفع لتحرير الجزائر وتحقيق الاستقلال كما نجد في قصائد مفدي زكريا إشارات متطابقة من ناحية الشكل والصورة الشعرية ويظهر ذلك في قوله لا سيّما قصده زنزنة العذاب:

وجلجل الخطب، أيّ في الدجى فلق

سيدكرون إذا الليل الرهيب سحى

عودا يعطّره، ذكرى واحترق

حسي وحسب أناسي، أن غدوت لهم

فهذه الصورة التي رسمها مفدي داخل لوحته الشعرية المغتربة تحمل بصمات انفعال الشاعر أبي فراس الحمداني

في وحدته وغرته عندما يقول:

وفي اللبلة الظلماء يفتقد البدر

ستذكرني قومي إذا جدّهم

نلاحظ أن الصورة الشعرية التي استخدمها مفدي هي التي جسدها أبو فراس في قصيدته بغض النظر عمّا تعجّ به من إشارات ودلالات فنية جديدة، فقد وصف أبو فراس نفيه بالبدر الذي يمضي ويتوارى في اللبلة المظلمة بينما يكتفي مفدي بتشبيه حالة نفسيته المعذبة بالعطر المعطّر الذي بدوره ينتشر ثم يزول.

3.2- المكون التاريخي: لقد اقتبس زكريا من التاريخ العربي والإسلامي بعض الأسماء التي أسهمت في تغيير حركة التاريخ، وأثّرت كذلك في بناء القيم الإنسانية والحضارية، أمثال: خالد بن الوليد، وسعد بن أبي وقاص... كما ذكر أسماء بعض أسماء الأنبياء والرسل نذكر منها: رسول البشرية محمد صلى الله عليه وسلم، والنبي عيسى عليه السلام، ونوح عليه السلام، وآدم أبو البشرية وحواء أم البشرية، فهو يستند إليها في التعبير عن تجربته الشعرية الثائرة في كثير من قصائده الشعرية للدلالة على الانتماء وأصالة الشعب الجزائري، ومستلهما من سيرتهم النبيلة أفعالهم الخالدة دروسا وعبرا، والتي أسهمت في تعبئة الشعب الجزائري من جهة، وربطه بماضيه التليد من جهة أخرى:

يقول مفدي:

وكان محمداً صهراً لعيسى

أولئك آباؤنا، منذ عيسى

وأجلى الندامى ورد الكؤوسا

ولاح الصباح، فhez السكارى

ويقول في موضع آخر:

وسعد بن وقاص أبطاليه

وجندت من خالد بن الوليد

وخلّدت أمجاد أنطاكيه

وجدّدت حطين في موطني

ففي هاته الأبيات نراه يذكر أسماء عربية وإسلامية، كما يذكر أنباء ورسل ويستحضرها استحضارا مباشرا دون الخوص في تبيان ملامح تلك الشخصيات، وربما كونها معروفة لدى العام والخاص أو فعل ذلك عن قصد لترك المجال مفتوحا للقارئ لتأويلها حسب العرض والغاية من توظيفها، ويذكر لأسماء الأنبياء ربما أراد أن يشير إلى صلة التقارب بينهم وإلى التسامح الذي كان يطبع كل الشرائع السماوية .

وهب الأمازيغ من دوناطو س تصول وتزجي الخميس اللهم

فأبناء مازيغ قادوا الفدا وخاضوا المعامه يوم الصدام

دعوا ماسينيسا يردد صدانا ذروه يخلد دمانا

وخلوا سفاكس يحكي لروما مدى الدهر كيف كسبنا الرهانا

وكيف غدا ظافرا ما سينيسا بزامة لم يرض فيها الهوانا

وكم ساوموه فثار إباء و أقسم أن لا يعيش جبانا

وهذه الأبيات وغيرها هي صورة مصغرة تمثل حضورا مكثفا للمكون التاريخي في تشكل الروية الشعرية لدى شاعرنا، كما تمنح للرمز الشعري كثافة دلالية تجمع بين الوعي التاريخي والنضال الوطني قصد التأثير في وجدان الشعب الجزائري حتى ينهض من جديد لدافع عن هويته التاريخية وأرضه المغتصبة.

4.2- المكون الطبيعي أو الجغرافي: يمثل المكان الطبيعي الحيز الجغرافي الذي عاش فيه شاعرنا تجربته

الفنية حيث اتخذها مصدرا ومكونا إضايقا آخر لرمزه الشعري، جاعلا من أسماء الأماكن والمدن دلالات إيحائية مشحونة بخصوصية المكان وأحداثه التاريخية. مثل: الأطلس والأوراس وباب الوادي وبانيام، والقصبة وبلكور وحمم ملوان وحمم ريغة ثم يشرع في تعداد مدن الجزائر. مثل: بجاية وقسنطينة وتلمسان ووهران والبليدة والمدية ووادي سوف والصحراء وغيرها. تلك المكان تحتل الكثير من أحداثها وبطولاتها وتاريخ نضالها المرير مع المستعمر الفرنسي فمثلا: واد الصومام يشير إلى انعقاد مؤتمر الصومام سنة 1956م ومدينة سكيكدة تدل على أحداث 20 أوت 1955م. أما قالمة فترمز إلى الانفاضة 08 ماي 1945م وهكذا بسكرة وعنابة وتبسة... ثم يتتبع أهم الأحداث التي مرت بها الثورة التحريرية إلى طلوع فجر الاستقلال والتحرير.

تبارك واديك صومامُ إنا حفظنا عهدك أيان ثرنا

أصومامُ باسمك صمم شعبُ سياسة ثورته فانطلقنا

سكيكدة الثائرين أعيدي علينا فضائح باغ حقودِ

أغسطس عشرون لم ينسها ويذكرها ألف ألف شهيدِ

وخمس وخمسون في الذكريات جلال يهدد صدر الوجودِ

وساجل بسكرة نجوى الأصيل وهمس الرمال بأذن النخيل

ولعلنا نستشف مما سبق ذكره، أن معالم المكان الطبيعي والجغرافي تتجسد باعتبارها من مكونات النص الشعري وعلاماته الدالة لدى مفدي، فهي تحمل مضامين إنسانية وعناصر ثقافية المكونة لهويته التاريخية، فعلاقة المكان تبدو في سياق نعت الأحداث الثورية التحررية التي جرت فيها ومسجلا تلك الوقائع البطولية التي قام بها الشعب الجزائري في سبيل تحرير الوطن، فيذكر أسماء الأماكن والمدن والأزمنة: كواد الصومام، وسكيكدة، وبسكرة، وأغسطس، وخمس وخمسون وغيرها، كاشفا عن تلك الفضائح وهمجية المستدمر الفرنسي الخاشم ضد القيم الإنسانية.

3- وظيفة الرمز الشعري في شعر مفدي زكريا: ومهما اختلف النقاد والأدباء في تحديد دلالة الرمز الشعري، فإنه يمثل ملمحا إبداعيا وفنيا في شعر مفدي زكريا؛ كونه أضحى عنده أداة يعتمد عليها للإيحاء بدلالة المباشرة والتصريح، فينقل القارئ من المستوى المباشر للقصيدة إلى المعاني والدلالات التي تكمن وراء الكلمات، كما يقوم باستكمال ما تعجز الكلمات عن تبيانها، وفي هذا السياق يقول أدونيس "الرمز هو ما يتيح لنا أن نتأمل شيئا آخر وراء النص، فالرمز هو قبل كل شيء معنى خفي وإيحاء، إنه اللغة التي تبدأ حين تنتهي لغة القصيدة، أو هو القصيدة التي تكون في وعيك بعد قراءة القصيدة"¹² ويرى كارل يونغ "أن الرمز أحسن طريقة ممكنة للتعبير عن شيء لا يوجد له معادل

فكري آخر، من الحق أن مضمونه المنطقي أو العقلي يستطيع إدراكه وفهمه لكن مضمونه اللامنطقي لا يمكن تفسيره تماماً، وإنما يلتقطه الحدس"¹³.

وهذا المدخل يساعدنا على فهم الوظيفة الرمزية الخطاب الشعري لدي مفدي، ولا سيما الدلالة المعجمية والتي تمثل المعنى المباشر الأول، أما الدلالة الإيحائية الباطنية، فهي التي تنمو نمواً شعرياً يُغيّر المعنى الأول، وهي تمثل المعنى الثاني الإضافي الجديد. ولا شك أن عملية نمو وتغير دلالة الرمز ليست عملية تقع في المستوى الأول، فهو ضروري يلائم منطق العقل ويوافق.

والرمز لا ينهض على محاكاة الواقع، وإنما ينطلق منه ويتجاوز لإنشاء علاقات جديدة مرتبطة بعالم الشاعر، وفي هذه المرحلة يصبح الشعر أكثر صفاء وتجريداً؛ لأنه يقدم صوراً حسية توحى بما هو معنوي. وهو بذلك عندما ينطلق من الواقع يرتبط بالذات فتتدهار المعالم المادية وتنهض على أنقاضها علاقات جديدة مرتبطة بالرؤية الذاتية للشاعر. والرمز كخيار جمالي وك تقنية فنية لا يقحمه الشاعر مباشرة في القصيدة بشكل اعتباطي ولكن يدججه بطريقة مدروسة، فهو يأتي من اللاوعي ويفرض نفسه على الشاعر.

أما شعر الثورة الجزائرية مفدي زكريا، فسخر قلمه، وكلماته التي كانت سوطاً على فرنسا، فقد تعامل مع الثورة والقضية تعامل الأم مع ولدها الذي يحتاج منها الوقت جلّه والاهتمام كله، فراح يخلّد كل ما تعلق بهذه الثورة وبأصدائها وأنواعها وبشائر النصر التي تحملها. يقول محمد ناصر في هذا الشاعر الرمز: "وعند بعض الشعراء الكبار مثل مفدي زكريا يصبح توظيف القرآن الكريم، والتاريخ الإسلامي أداة من أدوات التصويرية والتعبيرية في قصائده الثورية لا سيما التي كتبها وهو سجين ببربروس والبرواقية والحراش"¹⁴ فلم ينل منه التكنيك والسجن شيء بل جعل من رمز النار والرصاص والصفائح - التي يفهمها المستدمر - سلاحه الفتاك، يقول:

لغة القنابل في البيان فصيحّة	وضعت لمن في مسمعيه صمام
ولوافح النيران خير لوائح	رفعت لمن في ناظريه ركام
والحق والرشاش وإنْ نطقاً معاً	عنّت الوجوه وخزّت الأصنام ¹⁵

1.3- الرمز والبعد الوطني: لقد كان البعد الوطني في شعر مفدي ماثلاً في كتاباته الشعرية بنظرة أصيلة ينهل من روافد الدين والتاريخ والوطن الحب والوفاء والتضحية في سبيله ومستلمها منها تمادته وتشكيله الفني محاولاً إعادتها من جديد برموزها الشاخصة فيها وربطها بقيم الحق والعدل والإخاء والتحرر من العبودية. فكانت صورة الوطن لا تفارق شاعرنا في كل ما يكتبه حتى انعرس حب الوطن في كيانه. لذا ضلّ موضوع الوطن يستهوى مفدي منذ أن

عرف حاله وآله الذي آل إليه فدفعه دينه ووطنه وبكل القيم التي تحملها العروبة والإسلام أن يدود عن حياض الوطن حتى أضحي النار التي يُشعل الفتيل الحرب ضد المستعمر الفرنسي فيقول:

اعصفي يا ريح واقصفي يا رعود
وانحي يا جراح واحدّقي يا قيود
نحن قوم أباة ليس فينا جبان
قد سئمنا الحياة لا نملّ الجهاد

في سبيل البلاد

وأشير هنا أن "في الثلاثينات والأربعينات رابط الشاعر الجزائري في جبهتين اثنتين، جبهة المنافحة عن المقومات الأساسية للشخصية الوطنية، عقيدة وروحا ولغة وتاريخا وحضارة، وهي جبهة لا تحتمل المساومة ولا تخضع للترغيب والترهيب ولا تزايد في هذه المقومات بملء الأرض ذهابا، جبهة مستميتة حتى الوريد منقضة حتى النفس الأخير، فالحياة المادية للإنسان يمكن أن تتأرجح بين سياط الجلاّد ومقاصله، ولكن الكرامة البشرية المتمثلة في مقومات الوجود، تحتمل غير مصيري الوجود أو العدم وليس بينهما مجال للوسطية".¹⁵ **فمفدي زكريا** مثل الكاتب والخطيب المقاتل الذي ينافح عن الوطن مستدعيا رموز الطبيعة في حالة الغضب، فستعمل الرياح العاصفة والرعود المدوية. وهذا المنطق الذي يقدسه الشاعر ويروج له من خلال أشعاره حتى ولو كان سيحنا مكبلا. وفي هذا الصدد يقول محمد زغينة: "إنَّ حب الوطن في الثورة الجزائرية الكبرى، نَمَتَّه الأحداث وعمّقته المآسي حتى صار مقدّسا إلى أقصى درجة التقديسية. ولذا، صار الشوق إلى الوطن عاطفة سامية؛ لأن الوطن لا يمثل التراب فقط، بل يمثل كيان الإنسان الروحي والمادي واستمراره في الحياة، بل إنه رمز الحرية والانطلاق"¹⁶ لذا أمدت الطبيعة بشخصها المختلفة ولأواها وموزا تعبير عن أحزانها الثائرة وآماله الواعدة في تحرير الوطن.

2.3- الرمز والرؤية الإنسانية: إن المتأمل في شعر مفدي يحس بتلك المعاناة الكبرى، ويتمس تلك المشاعر

الإنسانية النبيلة التي انتابته وهو تحت السياط، فجاء شعره يحمل أهات عذاب إنسان يقبع تحت نير الاستعمار ناقلا آلامه وآماله من خلال رموز شعرية تُصوّر المشاهد المروعة وتُفصح عن قيم إنسانية نبيلة، ولذلك تراه يقول:

واحشري في غياهب السجن شعبا سيم خسفا فعاد شعبا عنيدا
واجعلي ببروس مثوى الضحايا إنَّ في ببروس مجدا تليدا

إن شاعرنا يكشف لنا في عمق شخصية ببروس الذي أضحي عنده رمزا للبطولة والشهامة؛ حيث تحمل ألوان العذاب والظلم والقهر والإجرام التي يقتربها آلة البطش والعدوان في حق كرامة الإنسان والإنسانيه، كما يعكس مشهدا ثانيا يعبر عن روح الصمود والتحدي التي ترفض الخنوع والإذلال.

3.3- الرموز المستقاة من الطبيعة ودلالاتها: يشكل الرمز الطبيعي أحد أهم العناصر التصوير الفني في

شعر مفدي زكريا وهو شكل يبرز فيه الشاعر ممارسات المستدمر الفرنسي من تنكيل وظلم سلطه على الشعب الجزائري والتي تمكنه من استبطان تجارب الواقع الذي آلت إليها الأمة العربية، كما يمنحها الرمز الطبيعة لمسة رومنتية فنية الذي يجسد أبعادا إنسانية جديدة ولذا ألفينا شاعرنا يردد عيّنة من الرموز المستقاة من الطبيعة في شعره، كالجبال والسهول والفجر والصبح والليل، وكل هذه الرموز مفعمة بالدلالة التي تُعبّر عن الصمود والمقومة والظلم، فمثلا رمز الجبل يستدعى دلالة الصمود والصبر والجهاد في مواجهة الاستعمار الفرنسي ويتجلى ذلك في يقوله:

بنوا سيدي قادوا النضال فهزّوا الثرى وأذابوا الجبال
فما انكفأت الجبال في السهول ل ولا انطفأت ثورة في الجبال

3.2- الدلالة الرمزية للشخصيات التاريخية: إنّ السّمة البارزة في شعر مفدي زكريا كثرة استعمال الرموز

التاريخية؛ حيث يُوظفها ليحقق ارتباط اللاحق برموز النص السابق والذي احتل بتجدره في ضمير الشاعر والمتلقي معا مكانة وارتبطت بأبعاد فكرية واجتماعية وسياسية، فقد تفاعل شاعرنا مع الشخصيات التاريخية في شعره، فهي تحمل دلالات رمزية تتعدد بتعدددها من أنبياء ورسل وصحابة وتابعين وقادة وفاتحين وغيرهم مستحضرا إياها قصد توظيفها بدلالة تتضمن لغة جديدة تفصح عن فكرة الصراع والثورة ليكشف عن قيم الحرية والعدل والتسامح التي تحملها تلك الشخصيات.

ومن ذلك شخصية سليمان عليه السلام التي استحضرها بطريقة أكثر فاعلية ورمزية من خلال حادثة وفاته التي أخفت عن الجن ليستمر في العمل، كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم فيقول:

ورعنا الليالي الجليلات فأجهضت ولم نك نخشى من عجائبها شرا
وما دلنا عن موت من ظن أنه سليمان -منساة- على وهما خرا

فهذا المشهد يستعده مفدي ويسقطه على موقف ديفول إزاء الثورة الجزائرية؛ حيث يرمز إليه متكئا على عظمة زائفة ما لبثت أن كسرتها يد الثورة والصورة الرمزية مستمدة من القرآن الكريم في قوله تعالى: فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجُنُودُ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ [سبأ 14] وقرن في بعض الأحيان بين شخصيتين النبي محمد عليه الصلاة والسلام والنبي عيسى عليه السلام؛ حيث يتم توظيفهما في موقف موحد، فيقول:

ونحترم الصوامع والقبابا

ونحترم الكنيسة في حمانا

وكان الحق بينهما انتسابا

وكان محمد نسبا لعيسى

فالدلالة واضحة هنا؛ إذ يشير إلى قيمة التسامح الديني ولاسيما في المنظور الإسلامي، وإلى فكرة التقارب بين الشرائع السماوية وتقاطعهما في كثير من القيم. فهاتان الشخصيتان، قد أخذتا قسطاً متوازياً من حيث التوظيف؛ لأنهما يجسدان قضية الصراع ضد الظلم وإقرار معنى إنسانية الإنسان، والاستدعاء كله ينصب في إطار الرسالة السامية التي تحمّلها الشاعر وحرص على إيصالها للمتلقي بشيء من الخصوصية.

وفي قصيدة "الذبيح الصاعد" يصور مفدي لنا شخصية أحمد زبانا أمام المقصلة مثل المسيح، حينما تقدم ليصلبوه، فهو يحاول أن يزاوج بين الصورتين "زباناً" و "المسيح" حيث أضحي الصليب رمزاً للفداء، وكذلك المقصلة صارت فداءً، وبعد القرآن الكريم المصدر الأول في توظيف الرموز الدينية واستحضارها في تمثّل القيم الإنسانية، وقد كان شاعرنا مداوماً على قراءته وأصبح هذا المصدر من أعزّ الروافد صبا في شعره، وظهر جلياً في لغته الشعرية وتصويره البديع، ومن أمثلة ذلك:

قَامَ يَخْتَالُ كَالْمَسِيحِ وَئِيدَا	يَتَّهَدَى نَشْوَانٌ، يَتَلَوُّ النَشِيدَا
بِاسْمِ الثَّغْرِ، كَالْمَلَأْتُكَ أَوْ كَالطَّ	قُلِّ، يَسْتَقْبِلُ الصَّبَاحَ الْجَدِيدَا
شَامَخَا أَنْفُهُ، جَلَّالاً وَتِيهًا	رَافِعَا رَأْسَهُ، يُنَاجِي الْخُلُودَا
زَافِلًا فِي خَلَاحِلٍ، زَعْرَدَتْ تَمَ	لًا مِنْ لَحْنِهَا الْفَضَاءَ الْبَعِيدَا

ولقد جسّد مفدي ثقافته الدينية الواسعة في قصائده التي أقرت بامتلاكه موهبة التصوير والتشكيل الفني وتوظيف الرموز، وهذا واضح في قصيدة **الذبيح الصاعد**، ولاسيما ما جاء في مطلعها أين رسم أجمل الصور وأقواها، ووظف رموزاً تراثية تملك طاقة إشعاعية كبرى بكثير من التكثيف. فاستخدم صورة بيانية وهي التشبيه مستحضراً شخصية **المسيح عليه السلام** كمثبه به، ليرمز إلى ما يتمتع به أول شهيد بالمقصلة في سجن **بربروس** وهو **أحمد زبانا** من ثبات على الحق واستهانة بالموت والآلام على يد جلاديه في سبيل القضية التي يؤمن بها، كما استثمر رمز الملاك الطاهر النقي الذي يطمح إلى الحرية والشموخ، وهو يسبح في الفضاء الفسيح ويستقبل الفجر الجديد.

ويقول في موضع آخر:

واقض يا موت في ما أنت قاض أنا راض إن عاش شعبي سعيدا

وفي هذا البيت استطاع الشاعر أن يجعل رمز الموت للدلالة على الاستعمار الغاشم، فهو يربط بين موقف السحرة وموقف أحمد زبانا، فكلاهما ذاق وبال التعذيب. فالسحرة صُلبوا في جذوع النخل ولكنهم ثبتوا على الإيمان حتى الموت، والشهيد زبانا أصّر على موقفه وصمد وقلبه ممتلئ بحب الجزائر.

4.3- الرموز الدينية ودلالاتها على الهوية الوطنية: لقد اتخذ التفاعل الحاصل بين النص الشعري عند مفدي

والمصادر التراثية أشكالاً مختلفة يحتل فيها القرآن الكريم بسوره وألفاظه ومعانيه مساحة واسعة من شعره وقد عمد هذا التفاعل إلى محاولة إثبات الهوية الوطنية التي سعى الآخر تغريبها، فكان القرآن الكريم، والحديث الشريف، المنهل الأول الذي تشرب منه النص الثوري واستند إليه في تعزيز صوته، ولقد اختلفت أشكال هذا التشرب من استلها من بعض الألفاظ أو الرموز الدينية إلى اقتباس آية قرآنية أو مجموعة من الآيات، ومن ذلك اقتباس آيات من سورة الزلزلة شكلاً ومضموناً لمحاكاة الزلزلة الفعلية للأرض، وقد تم الإعلان عن هذا الاقتباس من العنوان في قوله: (إن ربك أوحى لها)

فزلزت الأرض، زلزالها

هو الإنم، زلزل زلزالها

فأخرجت الأرض، أثقالها

وحملها الناس أثقالهم

يسائلها ساخراً: مالها؟

وقال ابن آدم في حمقه

تحاكي الجحيم، وأهوالها

فلا تسألوا الأرض عن رجة

ولقد عمد مفدي زكريا إلى استثمار الرموز القرآنية التي وظفها في تصور مشهد الثورة المضفرة محاكاة صورة الزلزال والهلع الذي حدث في الواقع، وقد جاءت تلك الأبيات الشعرية وموزها تقدم هدفاً عام ألا وهي الهوية الوجودية للشعب الجزائري، الذي حاول المستعمار الفرنسي اقتلاع جذوره الحضارية القابعة في أعماق تاريخه العتيق.

3.5- رمز الأرض دلالة للانتماء والاعتزاز: يقول مفدي زكريا في القصيدة التي عنوانها بنشيد الانطلاقة

الوطنية الأولى التي تغني بها حزب (نجم شمال إفريقيا) سنة 1936م ومطلعها:

ألا في سبيل الحرية

فداء الجزائر روعي و مالي

إلى أن يقول:

سلامًا سلامًا أرض الجدود سلامًا مهد معالينا

فأنت في الكون دار الخلود غرامك صار لنا دينا

فإننا حولك مثل الجنود لسان هـواك يناجينا

تبدو الأرض عند الشاعر زكريا أهم شيء في حياته؛ بل لا نجد فصلا بين الذات والأرض، فهي عنده دار الخلود، فهو لذلك جنودها، وهي لسان شعره ويدود عنها بالحب، وقدم لها التضحية والفداء في سببها، فأصبحت الصورة الرامزة تمتد إلى أبعاد ثقافية واجتماعية وحضارية الممزوجة بالوعي الإبداعي والخيال الابتكاري؛ كونها وسيلة لنقل القيم الإنسانية إلى الأجيال القادمة التي تتوق إلى الحرية والعدالة ونبذ الظلم والقهر.

الخاتمة: وبعد هذا التجول الفني في دلالات وأبعاد الرمز الشعري في بعض قصائد مفدي زكريا يجوز لنا القول: إن وظيفة الرمز الشعري لدى شاعرنا يختزل مضامين تاريخية، وأبعاد إنسانية ومثُل أخلاقية تتجاوز الحيز الوطني والقومي لتصل بنا إلى الحيز العالمي والإنساني. وكل رمز شعري عنده اتسمد وجوده ودلالاته؛ إمّا من التراث العربي الإسلامي وتاريخه الأدبي على اختلاف أنواعه وتباين مرجعياته، وإمّا من عناصر الطبيعة وتشكلاتها، فهي تخفي معانٍ متعددة، كما أنها تُفصّح عن مثُل إنسانية، كالتضحية والعدل والتحرر وغيرها؛ حيث وظّفها مفدي من خلال تلاحمه مع تجربته الشعرية الثائرة ابتغاء بث الوعي والنضال والمقاومة في نفوس الجزائريين. ولذا، فإنّ الرمز الشعري في شعر زكريا أضحى عند لغته الثورية الثانية، فهو تفاعل بين شيء ظاهر مألوف، وشيء خفي يحمل في ذاته أبعادا وجودية ودلالات وطنية. وهذا ما يدفع القارئ إلى قراءات متعددة، فتستجيب لآفاقه المنتظرة فيسهم في الارتقاء بشعرية القصيدة وعمق دلالاتها وشدة تأثيرها فيه.

الهوامش:

- ¹ - مفدي زكريا، اللهب المقدس، دط، الجزائر: دت، طبع بالمؤسسة الوطنية للفنون المطبعية وحدة ص 7.
- ² - المرجع نفسه، ص 7.
- ³ - المرجع نفسه، ص 7.
- ⁴ - محمد الدين محمد الفيروز آبادي، تح: أنس محمد الشامي وزكريا جابر أحمد، القاموس المحيط، دط، القاهرة: 2004، دار الحديث مادة: (ر م ز).
- ⁵ - السيد أحمد الهاشمي، جواهر البالغة في المعاني والبيان والبديع، ط 6، دار الكتب العلمية ص 277.
- ⁶ - الجاحظ، البيان والتبيين، تح: عبد السلام محمد هارون، ط 4، بيروت: دت، دار الفكر، ج 1 ص 7.
- ⁷ - محمد فتوح أحمد، الرمز في الشعر المعاصر، دار المعارف، ط 3، مصر: 1984م، ص 32.
- ⁸ - أدونيس، زمن الشعر. بيروت: 1980م، دار العودة، ص 160.

- 10 - موهوب مصطفى، الرمزية عند البحتري، دط، الجزائر: 1981م الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ص139.
- 11 - الوالي محمد، الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي والنقدي، ط1، بيروت: 1990م، المركز الثقافي العربي، ص192.
- 12 - المرجع نفسه، ص161.
- 13 - كارل يونغ، الإنسان ورموزه سيكولوجية العقل الباطن، تح: عبد الكريم ناصف، دط، التكوين للطباعة والنشر والتوزيع، ص16.
- 14 - محمد الطاهر يحياوي، أحاديث في الأدب والنقد، دط، الجزائر: 1990م، شركة الشهاب، ص82.
- 15 - مفدي زكريا، اللهب المقدس، ص42.
- 16 - الخزفي صالح، معجم البابطين لشعراء العربية في القرنين 19 و20، ص157.

قائمة المراجع :

- 1- ابن رشيقي، العمدة، تح: محمد الدين عبد الحميد، ط3، القاهرة: 1964م، دار السعادة، ج1.
- 2- محمد الدين محمد الفيروز آبادي، تح: أنس محمد الشامي وزكريا جابر أحمد، القاموس المحيط، دط، القاهرة: 2004م، دار الحديث.
- 3- أدونيس، زمن الشعر، ط2، بيروت: 1980م، دار العودة.
- 4- الخزفي صالح، معجم البابطين لشعراء العربية في القرنين 19 و20.
- 5- السيد أحمد الهاشمي، جواهر البالغة في المعاني والبيان والبدیع، ط6، دار الكتب العلمية.
- 6- الوالي محمد، الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي والنقدي، ط1، بيروت: 1990م، المركز الثقافي العربي.
- 7- محمد الطاهر يحياوي، أحاديث في الأدب والنقد، دط، الجزائر: 1990م، شركة الشهاب.
- 8- محمد فتوح أحمد، الرمز في الشعر المعاصر، ط3، مصر: 1984م، دار المعارف.
- 9- محمد زغبنة، شعراء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، دط، الجزائر: د.ت، المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع.
- 10- مفدي زكريا، اللهب المقدس، دط، الجزائر: دت، طبع بالمؤسسة الوطنية للفنون المطبعية وحدة.
- 11- موهوب مصطفى، الرمزية عند البحتري، دط، الجزائر: 1981م، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
- 12- كارل يونغ، الإنسان ورموزه سيكولوجية العقل الباطن، تح: عبد الكريم ناصف، دط، التكوين للطباعة والنشر والتوزيع